الباب الرابع
الفروسية العربية والأوروبية

- الفروسية العربية تجعل المساواة المسيحية تندى خجلاً.
- القيصر فريدريك الثاني يؤسس للسلام.
- جذور الفروسية الألمانية والعربية
- نماذج الفروسية العربية.
- التسامح العربي والألماني.
- الألماني النبيل.. رمز للفروسية.

obeikandl.com

obeikandl.com

الفروسية العربية تجعل القساوة المسيحية تندى خجلاً

لم يعد الانتماء إلى العقيدة وإنما روح الفروسية هي التي أصبحت تحدد الآن (من جديد) طبيعة الجبهات في ذلك اللقاء بين الشرق والغرب، تلك الروح التي تتناقض بشكل واضح مع الروح المسيحية التي تتسم بالتعصب والأفق الضيق.

وبالنسبة إلى طليعة قوات تلك الحملة الصليبية التي انتزع لواءها رسول الكاردينال بيلاجيوس فون ألبانور الذي أراد أن يهاجم السلطان الكامل، ابن أخت صلاح الدين، فوق الأراضي المصرية حدث الآتي لتلك القوات: حين أصدر بيلاجيوس أوامره عند الاستيلاء على قلعة دمياط الواقعة على دلتا النيل والتي دارت حولها معارك طويلة لإغراق السكان العرب في حمام دم حقيقي في ذروة الحماسة التي شهدتها الحروب الصليبية والتي فاقت كلَّ حد، إلا أن السلطان الكامل قام بعدها بوقت قصير، وبغض النظر عن ذلك الحدث بإنقاذ الجيش المسيحي بعد أن هزمه أمام القاهرة حيث بقي عدة أيام يعاني من الجوع الشديد وذلك أنه استمر يرسل إليه وطوال أربعة أيام بـ ٣٠٠٠ رغيف كل يوم وغير ذلك من المواد الغذائية، وبذلك أبقى على ألد أعدائه وأعداء بلاده حين وقعوا بين يديه ومنعهم من التضور جوعاً وذلك بدلاً من أن يرد على الشيء بمثله.

وقد كان لتلك السماحة صدى ملحوظ يتسم بالعرفان في كولون، ذلك أن دوملير أو ليفروس المكلف بالدعوة للحملة الصليبية كتب خطاباً في عام ١٢٢١ إلى السلطان يقول فيه:

" منذ العصور القديمة لم يسمع المرء عن مثال شبيه بذلك الكرم من جانب أعداء كثيرين تجاه أسراهم، ومنذ أن وضعنا الله بين يديك، لم نعرفك كطاغية أو حاكم، ولكن كأب لا يفعل إلا كل ما هو طيب، آخذ بيدنا ونحن نواجه الأخطار، كذلك فإن ذلك العمل الشهم كان يصعب إدراكه بالنسبة إلى رهبان كنيسة الروم في كولون: إذ من ذا الذي يمكنه أن يتشكك في أن ذلك الكرم والود وطيبة القلب مستمدة من الله، ذلك أن الرجال الذين قتلنا آباءهم وأبناءهم وبناتهم وأشقاءهم وشقيقاتهم بعد أن أذقناهم مرّ العذاب، قد قاموا هم أنفسهم بإمدادنا بطعامهم الخاص بهم ونحن مشرفون على الموت جوعاً وعاملونا بمختلف أنواع الكرم على الرغم من أننا كنا نخضع لسيطرتهم وسطوتهم " .

إلا أن ذلك العمل من أعمال الفروسية لم يكن استثناء فريداً، ذلك أن الشهامة العربية كانت تسبب المرة تلو الأخرى الخجل للمسيحيين الذين يعكرون السلام دون هوادة، مثلاً كما فعل أوائل الفرسان الصليبيين في أنطاكية المحتلة، حيث يقرر أحد شهود العيان المسيحيين: " أنهم غطوا كافة أنحاء المدينة بالجثث. إلى درجة أنه لم يكن في وسع أي شخص أن يتوقف هناك بسبب الرائحة العفنة المتصاعدة منها " ، ولم يكن في وسع المرء أن يعبر الشوارع إلا إذا وطأت قدماه رؤوس القتلى» وقد تمثلت الذروة المؤلمة لتلك القسوة المتناهية حين وقع في القدس التي تم الاستيلاء عليها فيما بعد " حمام دم آخر حيث إن رجالنا كانوا يخوضون في الدماء حتى الكاحل، كما حدث أيضاً عندما حاول ميخائيل السوري في وصفه للفرسان الغارقين في الدماء من قمة رأسهم إلى أخمص أقدامهم عندما حاول أن يجعل صورة بطريرك القدس ترسخ في ذاكرة الأجيال التالية، حيث كان البطريرك يجوس الشوارع قاتلاً كل المسلمين ودخل كنيسة القبر ويداه ملطختان

بالدماء وقام بغسل يديه وهو يردد العبارة التالية من الإصحاح ٥٨ " سوف يفرح العادل عندما يرى ذلك الانتقام وسوف يغسل رجليه في الدماء الكافرة " .

وحين حرر صلاح الدين القدس من جديد عام ١١٨٧ بعد أن ظلت ٨٨ عاماً تحت سيطرة الفرنجة، فإنه أبقى - على النقيض من تلك التصرفات المشار إليها تماماً- على حياة السكان المسيحيين عن طريق إصدار أوامر صريحة بذلك إلى فرسانه، كما منحهم حرية الانسحاب والحماية المسلحة أثناء ذلك، كما منح الموسرين مهلة أربعين يوماً لتقديم الفدية، ومنح (الأقل غنى) حريتهم مقابل مبالغ بسيطة، وحين طلب منه أخوه أن يطلق سراح ألف شخص دون أية مبالغ فإنه وافق كما فعل نفس الشيء بالنسبة إلى خمسة آلاف من كبار السن، وحين طلب شيخان من الذين شاركوا في عملية الاستيلاء على القدس، من صلاح الدين- وفقاً لما يرويه أحد المؤرخين المسيحيين- أن يسمح لهما بالبقاء وقضاء بقية عمرهما في القدس، فإنه لبى هذه الرغبة وأمر بإعطائهما ما يحتاجانه طالما كان يطلبانه، وهكذا أمضيا حياتهما هناك " . وفوق ذلك فإنه منح عدوه الكبير، البطريرك الروماني، وقائد عملية الدفاع عن القدس وغيرهما من المدافعين، منحهم حريتهم بناء على رجائهم، وقد جعل حراسه يرافقونهم حتى حدود أراضي الفرنجة، حيث قام أحد الفرسان الفرنجة، بعمل يهزأ بالشهامة الإسلامية يمليه عليه تكوينه الدنيء حيث نهب وقتل كثيرين ممن أطلق سراحهم .

كذلك كانت السماحة والفظاعة تقفان على طرفي نقيض ممثلتان في ذلك الأسلوب الذي كان يتم التعامل به مع الأسرى، ذلك أنه حين وقع ملك القدس، جاي دي لوزيجنان في الأسر خلال المعركة السالفة بالقرب من حطين فإن صلاح الدين عامله بكرم وأطلق سراحه بناء على العهد الذي قطعه على نفسه أمامه بألا

يشهر السيف في وجهه بعد الآن. إلا أن ذلك لم يمنع جاي دي لوزيجان من أن يخرق وعده على الفور، ذلك أن عقدة التفوق المسيحية كانت تسيطر على أمثاله وتجعلهم يقنعون أن المرء ليس في حاجة إلى أن يلتزم بالاتفاقات التي يعقدها مع الكفار، كذلك فإن الملك الإنجليزي ريتشارد قلب الأسد الذي كان يعد مثالاً للفروسية لشجاعته وانتصاراته، قد لوث شهرته تلك بعمل يتسم ببشاعة لايمكن تصورها.

ذلك أنه بعد الاستيلاء على عكا الذي نسبه ريتشارد لنفسه فقط، عاد الملك الفرنسي مع جزء من جيشه إلى وطنه، وأصبح الجزء المتبقي من الفرنسيين تحت إمرة دوق فون بورجوند. كان عدد الأسرى المسلمين كبيراً للغاية وأعطوا وعداً بأن من يتنصر منهم سوف يطلق سراحه، ولكن حين تحول الكثيرون إلى المسيحية تظاهراً على ما يبدو فُرض من جديد حظر على التعميد، وجرت المفاوضات هنا وهناك بشأن تبادل الأسرى، حيث طالب المتنصرون بفدية باهظة وإعادة الصليب المقدس الذي وقع في يدي صلاح الدين، وفي اليوم الذي كان مقرراً أن يتم فيه تسليم الصليب وقف رجال الدين المسيحيين في وجه المسلمين ولم يكن الاتفاق قد تم بعد على تفصيلات المعاهدة، وهنا أعطى الملك ريتشارد بعد أن استشار أصحابه، أوامره بشنق كافة الأسرى المسلمين أمام أنظار المفاوضين العرب بكل بساطة كان عددهم يقدر بما لا يقل عن ٣٠٠٠ عربي، وقد حذا قائد الجيش الفرنسي حذوه! وكان ما فاق تلك المذبحة في بشاعتها بالإضافة إلى ذلك أن هؤلاء الجشعين أخذوا يبحثون في أحشاء الموتى عن الذهب الذي ابتلعوه. وقد ألحقت تلك الجريمة أضراراً بالغة بالمكانة الشخصية للملك الإنجليزي، وكافة المسيحيين الذين شاركوا فيها، وجعلت الناس يشعرون بالشك العميق تجاهه

شخصياً كما أنه قد قضى على كافة ثمار نصرهم الذي حققوه بعد كل تلك الخسائر، وفي هذه المرة أيضاً لم يطبق صلاح الدين مبدأ العين بالعين والسن بالسن بالنسبة إلى الأسرى الذين بين يديه، ولكنه رفض بالطبع إطلاق سراحهم أو تسليم الصليب أو إعادة القدس لإقامة مملكة القدس من جديد.

ولقد كان من جرّاء تلك الأفعال البشعة أن ازداد الشعور المتباين في أماكن عدّة من الأوطان بالقلق العميق تجاه قتل الكفار لمجرد كونهم كذلك، بل وبدأت الأصوات ترتفع داخل دوائر رجال الدين بالذات، تعارض استخدام العنف من أجل العقيدة وضد تعاليم الكنيسية التي تقضي بأن التنصير يمكن أن يفرق بين الإنسان وأخيه في حقوقه وقيمه، وكذلك فإن الفارس الألماني فولفرام فون إيشنباج كان هو الذي عبر عن ثورته إزاء ذلك من خلال الشعر الذي صاغه باسم: "فيلهالم":

أليست تلك خطيئة أن يقتل الإنسان
أولئك الذين لم يتلقوا العماد
تلك في رأيي خطيئة كبرى
كما يذبح القصاب الحيوان؟
لأن الجميع مخلوقات الله

ولكن الأمر لم يقتصر فقط على الاحتجاج الشفوي.

القيصر فريدريك الثاني

يؤسسّ للسلام

وفي ذلك الحين بدأ القيصر الألماني الذي يفهم الفروسية على معناها الحقيقي، التدخل في ذلك الصراع الملتهب من الحماس العقائدي الذي يتسم بالتعصب وعدم التسامح والتعالي الأمر الذي لقي استجابة من الفروسية العربية الإسلامية.

وفي يوم ٧ سبتمبر ١٢٢٨م وحين نزل القيصر الثاني قرب عكا فإنه بروح من الاحترام غير المعهود من قبل، أرسل مع الكونت فون أكيون رسالة مصحوبة بهدايا ملكية إلى أمير المؤمنين السلطان الكامل، جاء فيها:

"إننا لم نأت عن طريق البحر لكي نستولي على بلادكم، لأننا نملك من البلاد أكثر مما يملك أي حاكم آخر في العالم، ولكن لكي نتولى أمر الأماكن المقدسة وفقاً لاتفاقنا، ويجب ألا تقلقوا بسب المسيحيين لا تضطروا إلى إراقة دماء رعاياكم في سبيل محاربتنا".

لقد كانت هذه لغة جديدة بين فرسان الصليب والمسلمين وسرعان ما تكونت جبهتان بين الراغبين في السلام والراغبين في الحرب، ولقد أصبح صوت البابا نفسه مسموعاً هنا في الشرق، ويرجع ذلك إلى أن دعوته إلى رفض طاعة الفارس الصليبي أي القيصر الذي حُرم من رحمة الكنيسة، قد وجدت آذاناً صاغية، وحاول جريجور بواسطة راهبان من الفرنسيسكان أن يدفع الألمان أنفسهم إلى إعلان عصيانهم على قيصرهم، وعلى الفور وضع فرسان المعبد واليوحانيون وكافة الرهبان المسيحيين والنبلاء الفرنسيين أنفسهم في مواجهة القيصر الذي غَضب عليه البابا، قيصر الإمبراطورية الرومانية المقدسة، والذي قام في ذلك

الوقت باستقبال صديقه من أيام صقلية، الأمير فخر الدين، في خيمته ليجري معه مفاوضات جديدة ومباحثات عميقة حول القضايا الفلسفية وأمور ما وراء الطبيعة.

وذلك أن الحالة قد تحسنت بصورة تامة منذ توقيع اتفاقهما لصالح السلطان الذي كان فوق ذلك معرضاً لضغوط من أشقائه، ولم يعد الكامل في حاجة إلى مساعدة فريدريك. وبينما كان فريدريك يشغل جيشه الألماني وبعض الفرسان الإنجليز الذين انضموا إليه بأعمال إقامة الاستحكامات، فإنه استغل نفوذه لإقرار السلام ومصير الرايخ، وكذلك لدعم مكانته الشخصية وإمبراطوريته وموقفه بصفته الأمير الأكبر للمسيحية، فقد أخذ يتبع السلطان من معسكر لآخر واستغل كافة مهارته الدبلوماسية ومعرفته الإنسانية الواسعة - وخاصة معرفته بالعقلية العربية- ليلعب لعبته الجريئه والكبيرة من أجل الوصول إلى الهدف البعيد والمتمثل باستعادة القدس ومن ثم الأماكن المقدسة.

وبالسيطرة الكاملة على النفس إزاء القلق الذي يجثم عليه بسبب المعارك في إمبراطوريته وإزاء تأخر الأسطول الذي يحمل المؤن لجيشه والموقف الخطير من جانب الوجهاء والخيانة المتربّصة في كل مكان خارج وداخل معسكره ومن ثم اعتماده تماماً على نفسه، فإنه خاض تلك المعركة الفكرية المزدوجة التي تبدو فرصها قليلة، وكان هيرمان فون سلتا وحده الصديق المخلص والمدرك للظروف المضطربة في البلاد، وبعد أن مات شقيق الكامل تولى الكامل بنفسه مسؤولية القدس، إذ ما الذي يمكن أن يدفعه إلى التخلي عنها؟ وكان يبدو أن كل شيء قد ضاع، ولكن كما اعترف القيصر فيما بعد: "لقد أخفينا الألم القاتل خلف سحناتنا البشوشة حتى لا يشعر الأعداء بفرحة الانتصار».

وكان الإمبراطور النهم إلى المعرفة والذي تلقى في موطنه بصقلية تعليمه على أيدي أحد الشيوخ العرب، كان يوجه إلى السلطان المصري وعلماء البلاط لديه أسئلة ظلت تبقي على جسر المودة الرفيع بين الاثنين.

ولقد كان الكامل يجد متعة كبيرة في الإجابة على تلك المسائل الفكرية، الرياضية، والطبيعية، والفلسفية التي تتفق مع اهتماماته الخاصة والتي تجعله يتعامل مع شريك متقارب معه فكرياً بل ذي تربية وروح ثقافية عربية. وعلى الرغم من أن هذا الشريك يتحدث لغته الخاصة إلا أنه كان يتقن بصورة فريدة صور الأدب والسماحة العربية المنتقاة، كما يبدو ذو هيئة شرقية فخمة ويحيط به حرس وحشم عربي، وتنم شخصيته عن مهابة تعادل مهابة الفرسان.

فهل كانت رسالة فخر الدين لفتة صداقة خارج نطاق كل السياسات؟ إن عدم الالتزام بالاتفاق كان شوكة غائرة بعمق ليس فقط في جانب القيصر ولكن أيضاً بالنسبة للأمير الذي شارك في التفاوض على الاتفاق وعلى رحلة القيصر إلى الشرق، وقد تساءل فريدريك في حديث سرّي مع رفيق خيمته العربي، عن السبب الذي يجعل الحرب والعنف يسودان بينه وبين السلطان، في حين أنهما لا يميلان إليهما، فلماذا لا يمدان يد الصداقة إلى بعضهما وهما يحبّان الفكر؟ وهل يجب عليهما بعد أن سالت كل هذه الدماء أن يجعلا الفرصة الكبيرة واللحظة المصيرية تفلت دون أن يجعلا الشرق والغرب يتصالحان؟

وعهد القيصر بناء على نصيحة فخر الدين إلى الكونت المحنك توماس فون أكوين الذي يتقن العربية كما يعرف أساليب التعامل مع العرب منذ كان في صقلية، أن يواصل المفاوضات بدلاً من رجل البلاط الفذ الذي دمر كثيراً من جسور الدبلوماسية، وقد عرف فريدريك عن طريق توماس فون أكوين كيف

يستثير نخوة الفروسية تجاه العرش والتي ترتبط صحوتها أو اندثارها بتحرير القدس. ولاقت تلك الاتصالات استجابة من السلطان الذي كان يعرف كافة تفصيلات الأحداث التي جرت بين القيصر والخليفة في روما.

وحين حاول فخر الدين شخصياً أن يشرح أفكار الإمبراطور وأن يذكره بالوعد الذي قطعه على نفسه والذي يؤدي عدم الوفاء به إلى نشوب المزيد من العداوات والحروب الجديدة مع المسيحيين والتي لا يمكن تقدير نتائجها بأية حال، وهنا أعلن الكامل عن استعداده لعقد اتفاق جديد خاصة وأن الحالة العسكرية في سوريا لم تكن في أحسن أحوالها.

هذا وبعد مائتي عام من الحروب ومن إراقة الدماء حدث في ١٨ فبراير ١٢٢٩ أن مّد الغرب والشرق أيديهم إلى بعض لأداء قسم مهيب، ذلك أن "أمير المؤمنين" السلطان الكامل أعطى أمام المعلم الكبير للطائفة الألمانية هيرمان فون سالسا، والكونت توماس فون أكوين، قسمه المقدس بأن يعمل وفقاً لتعاليم الله وما تنص عليه القوانين وبقلب صاف ونية طيبة وبدون نكوص وبإيمان قوي على أن يحافظ على كل ما تتضمنه الوثيقة التي بين يديه.

وفي نفس الوقت أقسم (القيصر فريدريك الثاني فون هوفنشيتاوفن) وهو الرئيس الدنيوي للمسيحية في معسكره الميداني قرب يافا، أقسم على إقرار السلام بين يدي الأمير فخر الدين ووفقاً للتقاليد العربية و أضاف أنه سيمزق يده اليسرى لو حنث بقسمه.

وبذلك أمكن عقد سلام "بدون قتال أو استخدام السلاح"، بين طرفين متساويين وفي جو من الصداقة الشخصية لا بل الحارّة.

لقد حقق القيصر فريدريك الثاني بذلك ما لم ينجح فيه أي شخص من قبل، وقد أعلن الجيش الألماني بواسطة هيرمان فون سالسا أن الجميع يمكنهم أن يبتهجوا ويسعدوا مع بعضهم. ذلك أنه يرجع الفضل في إنجاز هذا العمل الطيب إلى معجزة أكثر مما يرجع إلى الشجاعة، لأن ذلك العمل لم يستطع منذ سنوات طويلة أيٌّ من أمراء وحكام هذه الأرض أن يحققوه، سواء بواسطة جموع شعوبهم المحتشدة أو الخوف، أو غير ذلك من الوسائل في تآلف قلوب الشعوب المتفرقة.

ولقد تمكن أحد القياصرة الألمان من أن يحقق الهدف من كافة الحروب الصليبية دون إراقة الدماء، حيث تم تحرير الأراضي المقدسة التابعة للمسيحيين والتي أصبحت بين أيديهم ويسيطرون عليها وهي: القدس، بيت لحم، والناصرة، وطريق الحج المؤدي من الساحل عبر الجليل بقلاعها وكذا ميناء صيدا الهام الذي يسيطر على كافة الطرق المائية التي يستخدمها الخليفة الدمشقي، وكذلك مدن قيصرية ويافا وعكا نفسها التي تشربت أرضها بذلك القدر الكبير من دماء المسيحيين والمسلمين، وتقرّر أن تكون القدس وحدها والتي تحوي أيضاً الأماكن المقدسة للمسلمين، هي المدينة المقدسة لكلا الديانتين، وكما قال صلاح الدين من قبل لريتشارد قلب الأسد: "إن القدس مقدسة بالنسبة إلينا كذلك، بل إنها بالنسبة إلينا أكثر قداسة مما هي بالنسبة إليكم، ذلك أن النبي عرج من هناك إلى السماء ليلاً، كما أن الملائكة تجمعوا فيها". ولذلك تقرر أن يحتفظ المسلمون بجامع قبة الصخرة وبالمسجد الأقصى في الحرم الشريف، وهو ميدان المعبد، على أن يسمح للحجاج المسيحيين كذلك بأداء صلواتهم هناك، كما يسمح للمسلمين بأداء صلاتهم في بيت لحم، كما تم تأمين رحلة الحج المسيحية وممارسة الطقوس دون أية عوائق، وتم الاتفاق كذلك على أن يراعي حجاج الديانتين

بعضهم بعضًا ويكون لهم الحق في عبادة الله كل حسب طريقته.

وحين وضع فريدريك تاج مملكة القدس على رأسه في كنيسة (القبر)، فإنه نَهضَ بميراث زوجته التي توفيت في تلك الأثناء -إيزابيلا- بصفته حاميًا للقبر المقدس حسبما يراه وفقاً لفكرة الإمبراطورية التي تقول إن السيطرة تعني توفير الحماية.

كذلك فإن القيصر أغفل مسألة ادعاءات التملك الدنيوية التي لم يكن متاحاً للفرنجة بدون امتلاكها العمل على إرضاء المصالح المسيحية، ولقد أوكل إلى طائفة الفرسان الألمان مهمة الإقامة بجانب قلعة داود لأداء واجب الحماية، لأن طوائف الفرسان الأخرى أعلنت معاداتها له.

أما بالنسبة إلى أنصار البابا فقد كان كل ذلك بمثابة عمل شيطاني كما عبَّر بطريرك القدس، كذلك فإن قيام القيصر عموماً بالموافقة على إجراء مباحثات مع الكفار -وكونه فوق ذلك مطروداً من رحمة البابا- ويتفاوض معهم ويعقد معهم معاهدة ويسمح للكفار بالصلاة في القدس؛ كل ذلك كان بالنسبة إليهم سبباً كافياً لأن يجعلهم يصورون ذلك القيصر في أقبح صورة يبدو عليها أمراء (جهنم)، كخائن وملوث للدين وابن للشيطان وعدو للمسيح، ولقد كان ذلك التعايش على قدم المساواة نوعاً من الازدراء بالروح الصليبية الباباوية القديمة التي لا تزال المسيحية وطوائف الفرسان تشعر بالالتزام تجاهها. كما أن ما حدث بعد ذلك في ليون لمبعوث القيصر بناء على "شكوى البابا وبسبب علاقات القيصر الودية مع السلاطين، قد برهن عليه فريدريك هنا في القدس أمام أعين العالم كله: وهو أن صداقته مع الأمراء العرب قد حالت دون إراقة دماء مسيحية بريئة!" ولقد كان أكثر ما أثار أقصى شعور بالمرارة لدى خصوم القيصر أنه قد تمكن رغم كافة محاولات عرقلة جهوده من تحقيق أكثر مما استطاعت الجيوش الصليبية جميعها

تحقيقه بتضحياتها الهائلة من البشر، وحين استلم القيصر على بوابة يافا مفتاح المدينة من يدي (شمس الدين) مندوب السلطان، ودخل مع أتباعه الألمان إلى المدينة المقدسة التي كانت الهدف الذي تتوق إليه نفوس الصليبيين، فإن الأسقف بيتروس من قيصرية قام بحظر إقامة الشعائر الدينية في المدينة نفسها وفي الأماكن المقدسة، وكان هذا يعني : أنه لن يتم أداء شعائر الصلاة بعد الآن في بيوت العبادة، كما سيرفض رجال الدين تقديم الأسرار.

كذلك بدأ رجال الدين يحرضون الجيش على التمرّد، كما قام فرسان المعبد في الطريق بين يافا وعكا بمحاولة لاغتيال القيصر نجا منها بالكاد، ولكن فريدريك اتضح له فيما بعد أن البابا هو الذي دبرها، وبينما كان القيصر في عكا ينتظر وصول السفن، وقعت أعمال عدائية سافرة تحولت إلى معارك في الشوارع، فقد تمكن البطريرك من حشد جيش لمحاربة الألمان، ولكن فريدريك سبقه واحتل منازل فرسان المعبد واليوحانيين وطرد "كافة الفرسان الغرباء"، وألقيت القاذورات على حجر القبر المقدس الذي عوقب من جديد بالحرمان من الكنيسة والذي نجح في أن يجمع بين الشرق العربي والغرب في سلام واحترام متبادل وصداقة متكافئة، ولكن ذلك نفسه كان أشق ما يمكن أن يتوجه به المرء إزاء مشاعر التعصب الديني؛ أي منح الاحترام والمساواة في الحقوق لأصحاب الديانات الأخرى. وفيما بعد يعلق هيرمان فون سالسا على ذلك في خطاب إلى صديقه الأسقف، حيث يسحب البساط من تحت أقدام الدعاية المسيحية بقوله: "إنني أعرف أن بطريرك القدس قد منع أداء الشعائر الدينية؛ لأن العرب احتفظوا بمعبد الرب وبمعبد سليمان، ولكن دعنا لا ننسى أنه كان مسموحاً للعرب قبل أن يفقدوا الأرض المقدسة ممارسة عقيدتهم بحرية في كافة المدن تقريباً التي كانت تابعة

للمسيحيين، ، كما أن المسيحيين يمكنهم اليوم بنفس القدر العيش في دمشق وغيرها من البلاد الإسلامية ممارسين لعقيدتهم " .

وعلى الرغم من أن معاملة أصحاب الديانات الأخرى بروح الفروسية أمراً طبيعياً بالنسبة إلى فريدريك الثاني وهيرمان فون سالسا أيضاً بالصورة التي كانت تحدث وتتأكد دائماً في العالم العربي، ولأنها في الحقيقة كانت تتعارض بشدة مع الادعاء المطلق والتام للمسيحية حينذاك والذي كان يصلح له فقط شعار بيرنهارد: "الإفناء أو الهداية" .

ومما يميز ثقة القيصر في ذلك العالم العربي الذي يتسم بروح الفروسية أنه كان يتطلع قبل وفاته بوقت قصير حين أثرت عليه كثيراً تلك القسوة تجاه الإنسانية من جانب العالم الثاني الذي يُعَد هو فيه شخصاً وحيداً، كان يتطلع إلى "أن يبقى في الشرق إلى الأبد" ، وفي الوقت الذي أصابه ذلك التناقض الحاد الموجود في الأرض المقدسة في أقصى فترات أزمته فإن صورة الصداقة التي انطبعت لديه نتيجة لقائه مع فخر الدين (كانت رفيقه في وطنه) ولذلك فإنه أرسل إليه ذلك الاعتراف الشخصي كأفضل ما قدمه في حياته:

باسم الله الكريم الرحيم

ثبتت قلوبنا رغم الترحال

وتحررت من أجسادنا قلباً وقالباً

وأصبحت رهينة صداقتكم إلى الأبد

ثم عادت محلقة إلينا من جديد

وليست بنا حاجة إلى أن نتحدث عن الحزن الذي يثيره فينا الحب ولا عن الألم العنيف الذي ينتابنا ولا عن مدى شوقنا إلى الصحبة الأليفة مع فخر أدام الله عمره! . . . ولقد ذهبنا إلى مدى بعيد في هذا المجال، ولكن حيرة المرء الذي يرى نفسه وحيداً في العالم بعد أوقات الأنس والهدوء تثير مشاعرنا وأصبح الحزن بعد الفرقة يحل محل الصفاء الروحي والرغبة الطيبة، كما أن اليأس حلّ محل حيوية أحاديثنا".

كذلك فإنه استخدم صيغة الجمع التقليدية ليسقط كافة حواجز النفس ويقول: "عندما رحلت شعرت أنه لو أني خيرت بين البعاد والموت لفضلت الموت، فلقد أسديت لي فضلاً جميلاً".

جذور الفروسية الألمانية والعربية

أظهرت الحروب الصليبية بكل وضوح أنه ليس صحيحاً أن المسيحية -كما يتردد القول عادة- كانت هي التي جعلت الفروسية فكرةً تنفذ إلى روح تقاليد الفروسية.

فهذا القول بحاجة إلى تصحيح جذري، ذلك أن سلوك الفارس لا يعتبر جزءاً من فكرة -أحب جارك- التي تتجه نحو الأخ في المسيحية وحده وتختص بمن يعتنق ديانة أخرى بالاضطهاد والقتل، كما أنها لا تعتبر ناشئة عن الروح المسيحية بأية حال، ذلك أنها قد نشأت وتطورت في أوروبا من مصادر جرمانية خالصة في العصر قبل المسيحي تماماً مثلما نشأت الفروسية العربية في منطقة الصحراء العربية قبل الإسلام، وحيثما التقت الحركتان معاً مثلما حدث بين الكامل وفريدريك الثاني كانت مثل تلك اللقاءات تمثل ذروة الفروسية (الإنسانية).

فهل نطلب الكثير حينما نسلك الطريق القصير غير المباشر والمؤدي إلى البدايات الأولى لتلك الفروسية نفسها التي نجدها في الشمال في أساطير أيسلندا من العصر قبل المسيحي والتي لم تكن قد خضعت بعد لتأثيرات أخرى؟ الدافع الذي حرّك تلك الفروسية لم يكن كما ذكرنا هو محبة الجار التي تختص فقط بمن يعتنقون نفس الديانة، كما لم تحركها الشفقة التي تنحدر إلى نوع من العَوَز، ولكنها الحاجة إلى المساواة الناشئة عن تجربةً مختلفة تماماً. وإذا كانت هذه التقاليد قد تطورت فقط منذ "الفروسية الجرمانية" التي سادت فعلاً قبل ما يسمى بعصر الفرسان، وإذا كانت قد تطورت في مضمونها بما يفضي إلى فروسية العصور الوسطى الألمانية المبكرة، فإنها موجودة بالفعل في الروح القديمة الصلبة للمقاتل الجرماني. إنه ذلك العصر الذي كان يتجسد خلاله أنموذج الرجل ذي الشخصية

العظيمة، كما أن عصر الأخذ بثأر الدم، بمعنى الالتزام من جانب الفرد برابطة الجماعة التي يمت لها بصلة الدم، سواء كانت العشيرة أو الجماعة والالتزام بأخذ الثأر لأحد أفراد عشيرته أو جماعته وذلك عن طريق استعادة الشرف - بالمعنى الكامل للكلمة- من القاتل وذلك من أجل مداواة الجرح الذي أصاب شرف الجماعة الذي تمت استعادته وإلا لظل الجرح نافذاً، وبذلك يكتمل له الشرف. وهذا يبدو أمراً منطقياً تماماً - على الرغم من عدم استناده إلى منطق العقل: وذلك أنه لا يمكن استعادة الشرف إلا حيث يوجد؛ لأنه لا يمكن أخذ الشرف ممن لا قيمة أو شرف له، وإنما فقط حيث يكون هناك شرف، وشرف كبير، مثل هذا الانتقام لا يعكس فورة الغضب، ولا التعطش الشديد للثأر ولا الكراهية الشخصية بل على العكس فإن صراع الثأر الذي ينشب بسبب الغضب الفوري يعتبر أمراً غير جدير بالنبل تماماً، ويقول أحد الأمثال: إن العبد وحده هو الذي ينتقم على الفور في حين أن الجبان لا ينتقم مطلقاً، ومن ثم فليس من الضروري أن يتم إطفاء نيران الثأر عن طريق دماء العدو، وإنما يتم الإعداد له كنوع من أداء الواجب بعد إمعان الفكر.

ولأن من يتم الثأر منه يجب أن يكون جديراً بذلك فيمكن أن يحدث أن المرء بدلاً من أن يثأر من رجل "ذو شأن بسيط" وشرف ضعيف فإنه يثأر من أحد رفاق عشيرته ممن يتساوون مع القتيل والمنتقم على حد سواء، حيث يكون فتى حقاً وذو رجولة حقة. وكما قلنا فإنه لم تكن مشاعر الكراهية الشخصية هي التي تعبر عن نفسها في ذلك القتال، كما أن من يأخذ بثأره لم يكن يمتطي صهوة جواده في سعادة، كما لم يكن يسرع بالفرار سراً، وغالباً كان يحدث أن يحمي القتيل بيديه حتى لا تنهشه الجوارح كما أن شرفه يملي عليه أن يغطي القتيل وأن يُعلمَ أقاربه

وأصدقاءه عن مصرعه له لأنه قد "تصرف كما يجب أن يفعل" وهو ما اعتاد المؤرخون على ذكره، وكثيراً ما كان يمتزج إعجاب المنتقم بالخصم البارع في القتال وهو ما كان يميز العلاقة الإنسانية الجرمانية بأنها سعادة الرجل بخصمه النبيل، وكان يمتزج مع الشعور بالأسف لأنه فقد مثل ذلك الرجل.

كذلك فإن الرجل الشريف لا يهاجم عدوه من الخلف أو من وراء مكمن، وهو ما يدفعه أيضاً إلى أن يتجنب القتال ليلاً، كذلك فإنه لا يقتل النائمين أو الراقدين، كذلك لا يمكنه المساس بالنساء أو الأطفال؛ حتى ولو كان هناك صبي يمكن عندما يشب عن الطوق أن يكون هو نفسه الذي سيقوم بالثأر، كما يجب عليه كذلك الإبقاء على مثل ذلك الصبي رغم تأكده من هذه الحقيقة هو أمر يتطلب انضباطاً ذاتياً كاملاً وعقلاً هادئاً، ذلك أن "الشرف" الجرماني ليس هو ذلك الذي يمنحه المجتمع للإنسان، ولكنه في معناه العميق كلمة مختلفة مرادفة لمعنى الوعي بالمسؤولية التي تلزم الرجل والمرأة التزاماً لا محيص عنه.

وخلال القتال الثنائي الذي يتم وفق أحكام الإله القديمة والذي يعمل به لتنفيذ القانون، ويسبق المعركة، فإنه يجب أن يطبق مبدأ تكافؤ الخصمين، وإعلان الحرب جهاراً وإتاحة الظروف المشابهة. ولم يتغير ذلك مطلقاً بالنسبة إلى الفروسية، ذلك أن الكفاءة تتطلب إمكانية إصدار الحكم الموضوعي وغض النظر عن المشاعر والدوافع الشخصية وقبول الخصم كما هو عليه، وهي موضوعية متحررة من العداء الشخصي ولذلك فهي قادرة على أن تعترف بالعدو وتحترمه وتعجب به، بل وتعترف قدر الإمكان بحقه في القتال والخصومة ضد الفارس نفسه - دون أن يؤدي ذلك إلى إفراغ فكرة الأخذ بالثأر من مضمونها حيث إن تلك مختلفة تماماً-.

ومن هنا كان الانتقال من مرحلة المفهوم القديم للرجل أو المرأة ذوي الشأن العظيم إلى الفتى الفارس وإلى الفتى الأمين المهذب كان يحتاج لمجرد خطوة واحدة، وكثيراً ما كان يحدث أن يتحول التقويم الموضوعي للخصم الشريف الكفء نتيجة لتقديره حق قدره كان يتحول إلى إعجاب مُعْلَن في إطار ذلك الإحساس بالسعادة بين الرجل وصنوه الذي يعبر عن شعر الحكمة (أو الهافامال) وتؤدي عملية التواصل المباشرة تلك إلى تحقيق التلاحم بين مفهوم القدوة قديماً وحديثاً، كما أن تلك الأرضية المشتركة مهدت الأرض من خلال الحكايات التي تروى في شمال أيسلندا لظهور شيء جديد جرى نقشه على أحجار الجرانيت الموغلة في القدم، وفي أحيان أخرى كانت مصادر تلك الحكايات ذاتية محضة، وربما تكفي فكرة من قصة "تورشتاين شتانجهيب" بالنيابة عن الكثير لإلقاء نظرة على ذلك الاتجاه الجديد: كان على "بيارني" زعيم القبيلة الأيسلندي القوي والذي أثبت جدارته من خلال العديد من المعارك، كان عليه أن يطالب بثأره القديم من "تورشتين" الشاب الحاذق الذي كان يتولى تربية الخيول في زونتال، وذلك لأن تورشتين قد قتل عبداً لجاره وكذلك عبدين آخرين أرادا الانتقام له، وحين عقد بيارني ذات يوم العزَم على القتال قال لزوجه وهو يودعها: إن تورشتين لم يقتل أيا منهما على غير وجه حق "وتبع ذلك معركة ثنائية شديدة الضراوة جرت في جو غريب وبطريقة مختلفة تماماً عن التي كان يخوض بها الرجل العظيم معاركه فيما مضى؛ فقد أدى التلاحم القوي بينهما إلى تمزيق دروع الطرفين، وهنا قال بيارني: "إنني أشعر بالعطش وأنا غير معتاد على هذا النوع من الجهد مثلك". فردعليه تورشتين: "إذن اذهب إلى الجدول واشرب." ففعل بيارني ذلك وترك سيفه بجانبه، فالتقطه تورشتين وتأمل نصله ثم قال: "إنك لم

تكن بك حاجة إلى ذلك السيف في بودفرستال" ، ولكن بيارني لزم الصمت، ثم استأنفا القتال فوق التل الصغير، وبدا له أن تورشتين "فتى الجحيم" هذا كما يصفه أقرانه، يتقن فنون القتال كما أنه أشد جلداً مما كان يعتقد، فقال بيارني: "إن سوء الحظ يلازمني اليوم، فقد انحل رباط حذائي. "فأجاب تورشتين: "يمكنك أن تعيد ربطه، فانحنى بيارني، ولكن تورشتين ذهب إلى منزله وعاد بدرعين وسيف حاد قال إن أباه المريض أعطاهما له "إنني نفسي لا أجرؤ على مواجهة ضرباتك بدون درع (وأكثر من ذلك)، ولكنني لا أريد توجيه الضربة الأولى" فضربه بيارني وأسقط عنه درعه كلية، وفعل تورشتين نفس الشيء فقال له بيارني: "لقد كانت هذه ضربة قوية" فرد تورشتين": وضربتك لم تكن أقل شدة" .

وقال بيارني: "إن سيفك الآن أكثر مضاءً عما كان في البداية، فقال تورشتين: "إنني أفضل عدم التعرض للخطر، كما إنني لا أوجه ضرباتي إليك بقوة، وأريد أن أترك كل شيء الآن لحكمك. "وحين أصبح الاثنان يواجهان بعضها دون دروع من جديد، قرر بيارني إيقاف المعركة التي لم تحسم من ذلك الخصم الذي يدانيه مقدرة: "إنه ليكون أمراً غير مجد أن أبني عملاً سيئاً على آخر طيب، وسوف أعتبر أنني قد عوضت عن رجالي الثلاثة كلية لو انضممت إليّ وأعلنت ولاءك لي" .

هنا أجاب تورشتين: "لقد كان لدي اليوم فرصة لأتصرف معك من منطلق الكراهية لو أن ما أصابني من سوء كان أكثر مما أصابك من خير، كما أنني لن أخونك مستقبلاً. "إنك فتى شريف وطيب" . وأعطى بيارني بعض العبيد إلى والد تورشتين المريض لمعاونته، وانضم تورشتين إلى بيارني وظل بجانبه حتى وفاته. وتخرج الأسطورة من ذلك بصفة عامة أنه ليس هناك من يداني تورشتين

في تقاليده الشريفة وشجاعته".

أين إذن هنايوجدُ الثأر؟ وهل نسي بيارني إعادة العمل بالتعاليم التي يدين لها كرئيس للقبيلة إذا كان يريد ألا يفقد ثقة رجاله، وهل نسي ثأره بسبب صداقته؟ إنه عندما يقرر خوض القتال فإنه يفعل ذلك مدركاً أن تورشتين كان محقاً في تصرفه، وهذا يعني أنه كان يقف في حقيقة الأمر منذ البداية في صف خصمه الحاذق، وهذه الموضوعية بين الاثنين التي تراعي حق الطرف الآخر تجعل كل طرف يعترف في دخيلة نفسه بالطرف الآخر، قد تحولت تماماً خلال القتال إلى إعجاب خفي متبادل، وتورشتين الذي لم يكن وهو الشاب القوي يدرك حقيقة تفوقه على ذلك البطل الشهير الجدير بالإعجاب خلال تلك المعركة في (بودفارستال) وكان عليه أن يكبح جماح نفسه حتى لا يؤذي ذلك البطل.

ولم يكن أي منهما يريد أن يتميز عن الآخر، ذلك أن القتال تحت ظروف غير متكافئة لا يعتبر قتالاً في نظرهما، كما أن الإحساس بالزهو الذي يتطلب أقصر المعاناة لا يمكن أن يتحقق بمحض الصدفة، ولقد كان مصدر سرور لبيارني أن يُفْسحَ لخصمه المجال لإبراز بعض الميزات لكي يضعه بذلك موضع التجربة، ولكن تورشتين كان مترفعاً عن أية محاولة لنزع الشرف عنه، بل إنه نفسه وجد مبرراً لكي يعطي خصمه سلاحاً أفضل كما حظي - ليس عن طريق مهارته في القتال- بقدر ما حظي نتيجة لتقاليده السوية والشريفة على الاعتراف بل والميل الخفي من جانب خصمه ولم يكن الأمر مختلفاً بالنسبة إلى بيارني، ذلك أنه رفض بدوره كل محاولة من الشاب الذي يصغره لكي يبقي عليه، فكان كل منهما يرى أن يكون الطرف الآخر على حقيقته الأصلية تماماً؛ أي أن يكون ما هو عليه بالفعل، وكان تمكن تورشتين من إثبات قدراته بهذه الطريقة قد جعله يحظى بثقة وصداقة بيارني.

ونعيد السؤال مرة أخرى: أين هو الثأر إذن؟

إن الصديق هو الذي يُضمدُّ الجراح تماماً إذا أعطى نفسه لصديقه كليةً وهو الخصم الشريف الذي تغطي أمانته على الكرامة الجريحه، فتغدو هذه الأعطيةُ بديلاً عن الثأر، وبذلك يكون الصراع من أجل الثأر قد تحول هنا إلى مباراة في مبادئ الشهامة، كما أن المطالبة بالتكافؤ قد تحولت من خلال مشاعر الفرحة بين الرجل ومنافسه ومن الإحساس بالأسى على فقدانه إلى التعلق بمقولة: "لو لم تكن خصمي فلا شك كنت ستصبح صديقي". وقد تحولت هذه المقولة إلى رغبة في أن يكون مثل ذلك المنافس النبيل صديقاً.

وهكذا تعلن صحوة جديدة عن نفسها تأخذ الإنسان الآخر بعين الاعتبار وتقدر قيمته كإنسان، وإنه ليكون من الخطأ أن لا نعترف للشخص من الطراز القديم بنظرته تجاه الآخرين وذلك أن الخصومة لا تعني أن يغمط الآخر حقه أو لا يعطيه الاحترام الذي يستحقه.

إلا أن نظرة "الرجل الشريف" تتجه -دون أن يغفل قضية الجانب الذي ينتمي إليه- تتجه نحو ما هيته، ولذلك فإنه يتقبله على هذا الأساس ويعترف به فقط إذا أثبت أنه رجل ذو أخلاق شريفة، وكما يقيس المرء قوته استناداً إلى إحساس الرجل بالسعادة تجاه الآخر بقوة خصمه الذي يكافئه، فإنه أيضاً يضع أخلاقياته في مواجهة أخلاقيات الطرف الآخر، ولذلك فإنه لا يستطيع سوى أن يعامل الخصم الشريف كما يعامل نفسه ويكون جديراً بمواجهة الطرف الآخر.

إلا أن المرء لا يشعر بأي التزام تجاه الإنسان الوضيع، فإذا أثبت العدو أنه كذلك، فإن السيف وحده هو الذي تكون له الكلمة، حيث يوجه ضربة قوية بأعصاب ثابته دون أية رحمة.

ويتضح هنا أن هناك هوة تفصل بين هذه الأخلاقيات وبين المسيحية، إنه ليس لها علاقة مع الشفقة ولا حب الآخر، لأن المرء لا يمنح المعونة أو الحماية لمن يحتاجها ولكن لمن هو بحاجة إليها، أي ليس بدافع الشفقة نحو الضعيف ولكن بدافع الإعجاب بالشخص النبيل الجدير بالاحترام. ولم يكن لعرض تورشتين على بيارني بأن يصدر هو الحكم بنفسه أية علاقة مطلقاً بالندم أو الرغبة في الكفّارة، وإنما هو يتوجه بذلك مخاطباً نزاهة الساعي إلى الانتقام، لأن هذه النزاهة تمنعه من أن يعامل الشخص الذي وضع نفسه رهن حكمه، بطريقة خلاف الطريقة الشريفة، ومن ثم فلا يجب أن تبدو سماحته أقل من نُبل الشخص الذي وضع نفسه طواعيةً بين يديه، ولذلك فإن الإبقاء على العدو لا يعتبر تنازلاً بدافع الشفقة، ولا يعتبر التقاء بين المقدرة والاحتياج، بحيث تؤدي العلاقة التبادلية بينهما إلى أن ترمي من وراء الشفقة إلى إحداث التوازن الذي يحقق المساعدة المنشودة؛ ذلك أنها تنطلق من الإحساس العام للشخص الشريف الجدير بالاحترام والإعجاب الذي يشعر المرء بدوره أنه ملتزم تجاهه بالتصرف الشريف. والعامل الحاسم الوحيد يتمثل في الأخلاقيات العليا التي تكون أشبه بنداء موجه إلى الفتى الشريف، كما أنها تستدعي نفس الإحساس الرفيع وفي مقدورها أن تحول العداء إلى رابطة نضال، كما أنها تصهر الخصومة وتحولها إلى جماعة سلمٍ جديدة.

إذن ما الذي حدث هنا؟ (هل هو انقلاب أم قطيعة؟) أو لم يكن ذلك انعتاقاً أو حملة تنطلق من أرضية صلبة، لتستقّر في مكان أكثر رحابةً؟ ألا نشهد اليوم شيئاً مشابهاً لذلك. إن "الأنا" التي كان لها منطلقاتها الثابته في العشيرة منذ عصور موغلة في القدم قد أخذت تنتشر متجاوزة نطاق رابطة الدم والقسم (العهد). كذلك مثلما أن الأمم المختلفة التي تجاوزت اليوم نطاقها المخدود وتعلمت كيف

تفكر في إطار المفهوم الأوروبي لتشمل الروابط القائمة خارج ذلك النطاق ومن يرتبطون بروابط أخرى حيث عرف المرء خلالها كيف يحترم الرجل ذا الشرف والأخلاق الكريمة، والذي يحظى بالتقدير نتيجة لسلوكه الذي يتسم بالنزاهة. وكما استطاعت الأمم الأوروبية بعد تجارب الحربين العالميتين وعمليات التدمير الذاتي المتبادل طوال قرون أن تؤلّف مجتمعاً أوروبياً يعمه السلام من شركاء متساوين في الحقوق.

فإن روح الفتى الشريف كانت تفوق ضرورة الانحياز إلى جانب، والتي كانت ضروريتها تنبع من الروح القديمة التي كانت تمثل عظمة تلك الروح كما تمثل الخطر المتمثل في خطر الإفناء الذاتي (العشائر) بسبب الثأر والتضحية بأفضل الناس وأشرفهم باسم شرف وسلام القبيلة نفسها.

لقد سمح لنا الشمال بأن نحاكي بدقة التطورات الجرمانية الداخلية التي وصلت إلى قمة نضجها وكمالها من خلال الفروسية التي سرعان ما ظهرت في وسط أوروبا، كما أن الإمبراطورية والخدام فيها هما اللذان أفرزا من ذلك النموذج الفكرة الداخلية الملزمة لطبيعة الفروسية، على نفس الصورة التي شهدها القيصر فريدريك الثاني من قبل وصاغها شِعراً مغني الإمبراطورية الكبير فولفرام فون إيشبناخ.

وكذلك لم يكن صدفة أن يستمد هذا الشاعر من الفروسية العربية إلهامه الذي ساعده في صياغة مفاهيم الفروسية من خلال عملية الشعر بين الكبيرين "بارتسيفال" و "فيلهلم".

ولا شك أن أنماط الفروسية الألمانية والعربية قد انبثقتْ من جذورها الذاتية الضاربة في القدم. وعلى الرغم من ذلك فإن كلاً منهما تشبه الأخرى فهل ذلك هو السبب في انجذاب كل منهما نحو الأخرى؟ وهناك ملامح تشابه هنا وهناك؛

ذلك أن الأخلاقيات العالية المتمثلة في كرم الضيافة العربية والجرمانية القديم، وأخلاقيات الالتزام بأخذ الثأر ونموذج البطل المناضل الذي يدفع الآخرين -حتى ولو كانوا من أعدائه- إلى الإعجاب به والحب له والأسى عليه، ويبدو هذا واضحاً سواء في الصحراء العربية أو في القرى الأيسلندية، وبلاط ملوك البورجوند، وهذا التشابه جدير بالاهتمام بشكل خاص؛ لأن تلك القوانين الأخلاقية للطرفين ليست بأية حال ذات طابع إنساني عام، ومن ثم فإنها لا ترى سواء بالنسبة إلى كافة الشعوب الشرقية الأخرى ولا بالنسبة إلى كل دول الغرب. كما أن ذلك التشابه يعتبر من كافة أساليب التفكير الاجتماعية الجامدة، ذلك أن جذور العروبية ترجع إلى البداوة التي يعيشها البدو، وفي ظلها تطور شكلها الخالص وأسلوبها النفسي، في حين أن الجرمانية قد نشأت عن الحياة الريفية المحاربة وطورت خلالها أسلوبها وعالم القيم الخاص بها.

وحتى نتمكن من معرفة قيمة كرم الضيافة التي لا تضع قيوداً على هذا الكرم وعلى إنكار التراث والتي تسمو حتى في أقصى أوقات الصراع مأساوية عن أي إغراء بخيانة الوفاء، يجب علينا أن نستكشف الجدية التي تهز المستمع والتي تتسم بالعمق وذلك من خلال الأوصاف الثمينة المنحوتة في أناشيد الأبطال القديمة والأساطير وحكايات التاريخ والتي تتجاذب الإنسان بين واجبين في إطار أعمق تجربة إنسانية يخوضها المرء لإثبات ذاته.

وينطبق ذلك الوضع على الملك تورشتين الذي ينتمي إلى شعب الجبيذ الجرماني الذي هاجر من منطقة الفايكسل ويعمل أمام أتباعه على إنقاذ ضيفه الذي قتل ابنه، وهو البوين الأنجوباردي أو على الفلاحة الأيسلندية جوردون ابنة أوزضيف التي تخلت عن خطبتها للرجل الذي اعتقد أن في مقدورها أن تشي

بشخص محتقر إلى أعدائه بعد أن أصبح يتمع بحمايتها بمجرد دخوله إلى منزلها. ثم ألا يسري نفس الشيء بالنسبة لفارس الصحراء العربي والفروسية الإسلامية.

إن هناك ارتباطاً مباشراً بين التزام الطرفين بكرم الضيافة وبين الفروسية، ذلك أنه سواء بالنسبة إلى العربي أو إلى الجرماني كان المبدأ المعمول به هو أنه عند استقبال أي ضيف أو أي طالب للمساعدة يصبح هناك التزام من المضيف لا يمكن الفكاك منه، وسواء كان الضيف صديقاً للعشيرة أو عدواً لها - بمجرد أنه أصبح في حماية المخيم وأهله فإن ذلك الدخول يعتبر نداءً ليوظفوا كل ما لديهم من قوة غير مشروطة من أجل أن يتمتع الضيف بالحماية.

وهذا الالتزام يفوق بالفعل أي التزام آخر حتى ذلك الالتزام تجاه الجماعة التي ينتمي إليها المرء بصلة الدم.

ويُلزم كلاً من العربي والجرماني بقوة إلى حد أن الاهتمام بالضيف يصبح أكبر من حرص المضيف على حياته هو، بل وأكبر أيضاً مما تطلبه تعاليم حب الجار، وينطبق هذا أيضاً على الفروسية العربية: ذلك أن الحد من المشاعر القبلية قد بدأ منذ (النبي محمد ﷺ) ينتشر في اتجاه المجتمع الجديد المسمى دار الإسلام. إلا أن الاختلاف بين المجتمع العقائدي الإسلامي والمسيحي لا يمكن التغاضي عنه، كما أن المواجهة التي حدثت خلال الحروب الصليبية قد سلطت عليه أضواء التاريخ لقد ثبت بالبرهان القاطع كيفية معاملة المسيحيين واليهود في كافة الدول العربية؛ ذلك أن المجتمع العربي لكافة المؤمنين لا يعزل نفسه مثل المجتمع المسيحي عن أصحاب الديانات الأخرى عن طريق التنصير الإجباري والاضطهاد والإفناء بصورة متعصبة، بل على العكس كان المجتمع العربي يشعر وفقاً لقانون الضيافة القديم أنه ملتزم تجاه العدو وتجاه غير المسلم.

نماذج الفروسية العربية

نشأ الأمير العربي أسامة بن منقذ في ظل تلك الظروف التي كانت تعتبر منذ القدم جزءاً من مكونات القيم العربية، ويحكي لنا عن شبابه فيقول: لقد تم الاحتفاظ ببعض الفرسان الفرنجة كرهائن في قلعة آبائي المسماة شيزر، كضمان لدين على ملكهم لحسام الدين تيمور تاش، وفي اللحظة التي تم فيها تسديد الدين أراد الفرسان العودة إلى بلادهم، ولكن خيرخان حاكم حمص أرسل فرقة من الفرسان لكي تنصب كميناً في منطقة خارج (شيزر) وحين تقدم الرهائن انبرى أعداؤهم وتغلبوا عليهم. وفي الحال امتطى أبو أسامة وخاله جواديهما "وأرسلا كل من التف حولهما من أجل تحرير الرهائن، وقد ذهبت أنا أيضاً وقال والدي: اقتف مع زملائك آثارهم ولا تخش الموت إذا كان الأمر يتعلق بإنقاذ الرهائن، فانطلقت ووصلت في الوقت المناسب بعد أن ركبت معظم النهار وقمت بتحريرهم مع رفاقهم كما أسرت بعض فرسان حمص ولكنني أعجبت بشكل خاص بكلمة والدي: "لاتحجم عن مواجهة الموت إذا كان الأمر يتعلق بإنقاذ الرهائن".

لم يهتم المسلمون بعدو يتسم بالحذق ويحظى بالإعجاب كما فعلوا تجاه الملك الإنجليزي ريتشارد قلب الأسد الذي وصلت أخبار شهرته غير العادية في القتال إلى أقصى خيمة في البادية، كذلك فلقد كانت أضعف الأصوات التي تطلب المساعدة تجد لها أذاناً صاغيةً عند المسلمين وتثير فيهم روح الفارس في تقديم المساعدة. وقد قص المهندس المصري بهاء الدين طرفة عن محاولة ريتشارد الملتوية لكي يقتنص بعض المميزات مستفيداً من معرفته بالطبيعة والتقاليد العربية: ذلك أنه حين مرض الملك أمام عكا، أرسل رسولاً إلى معسكر صلاح الدين. ولقد

كان الرسول الذي جاء في الحقيقة لكي يطلب بعض الأشياء التي يحتاجها سيده أثناء مرضه قد وجه الرسالة التالية : " من ضمن عادات ملوكنا أن يتبادلوا الهدايا خاصة في أوقات الحروب، كما أن سيدي قادر على منح بعضها بما يتناسب ومقام السلطان، فهل تسمح لي بإحضارها؟ فأجاب (أخو صلاح الدين) الملك العادل إننا نقبل الهدية بسرور ولكن فقط إذا سمح لنا بأن نقدم بعض الهدايا في مقابلها فاستمر الرسول يقول : " لقد أحضرنا معنا بعض الصقور والطيور الجارحة التي عانت كثيراً خلال الرحلة وتكاد تنفق، فهل تتفضلون أن تهدوننا بعض الدجاج والفراريج من أجل إطعام تلك الطيور ؟ وبمجرد أن تعود إلى حالتها سوف نحضرها إلى السلطان تعبيراً عن تقديرنا " فأجاب الملك العادل : " من الأفضل أن تقول إن سيدك مريض وبحاجة إلى الفراخ من أجل استعادة قواه وعلى أي حال، فإنها متوافرة وسوف يحصل على أكبر قدر يريده منها تودداً من طرفنا. والآن دعنا نتحدث عن شيء آخر " .

وبعد عدة أيام أعاد ملك إنجلترا إلى السلطان أحد الأسرى المسلمين كما أن صلاح الدين أعطى الرسول رداء تشريفية، وبعدها طلب الملك بعض الثمار والحلوى فأعطيت له .

وقد كان الملك المسيحي وحده هو أقل من شكر للأمراء المسلمين فروسيتهم تلك، ولكن على الرغم من أن ريتشارد قلب الأسد قد انحدر خلال غضبه الذي لم يعد يستطيع السيطرة عليه بسبب التأخير في تسليم الصليب إلى عملية التقتيل الوحشية لأسرى المسلمين، فقد حدثت أكثر الأمور غرابة؛ ذلك أن الفروسية العربية قد كسرت من جديد حدة ذلك العدو حين أصبح العدو في محنة، كما أن الشيء الذي جعل الفلاح البسيط في " تزونينتال " بإيسلندا يكنُّ الإعجاب لخصمه

قد تكرر هنا يوم ٥ أغسطس ١١٩٢م خلال معركة يافا، ذلك أن السهام العربية قد قتلت فرسين امتطاهما الملك على التوالي؛ مما اضطره إلى مواصلة القتال على قدميه وسط معركة الفرسان، وهنا أرسل الملك العادل شقيق صلاح الدين لعدوه جوادين كريمين، وحتى لا نخلط بين هذا الكرم الكبير المعطاء الذي تتسم به الفروسية العربية، وبين حب الإنسانية الذي يَلُفُ كل شيء، ويعفو عن كل خطأ، وأن تلك الإنسانية قد تلجأ أيضاً إلى الشدة بل والقسوة حين تتعرض للتآمر والخيانة أو غيرها من الأفعال الخسيسة التي تجبرها على التزام الصمت، فهو أمر يظهره قيام صلاح الدين بشنق رينود دي شايتلون بيديه، ولو أن السلطان لم يتخذ أشد الخطوات قسوة بعد أن أمر ريتشارد قلب الأسد بعمل حمام الدم ولو أنه لم يطلق مبدأ العين بالعين، والانتقام من الأسرى المسيحيين -حيث إنه اكتفى بقتل الأسرى الجدد - إلا أن الخيانة المستمرة من جانب الفارس الفرنسي الذي كان أبعد ما يكون عن الفروسية ، رينور دي شايتلون ، قد دفعته إلى أن يقسم بأنه سوف يقوم ذات يوم بفصل رأس شايتلون عن جسده بيديه .

وعلى الرغم من أن "رينون" كان ذا أصل وضيع إلا أنه كان محظوظاً، وكان وسيماً؛ لكنه كان دونياً، وحصل عن طريق حبه لأميرة أنطاكية المترملة على إحدى إمارات مملكة القدس، وبالنسبة إليه لم تكن الحملة الصليبية سوى مغامرة جنونية لا يحدها شيء، وفرصة عظيمة لقطع الطريق حيث كان يقوم من قلعته الصحراوية "كراك فون مواب" على الجانب الآخر من البحر الميت بنهب قوافل الجمال التي كانت تضم التجار والحجاج القادمين من مصر والمتجهين إلى دمشق أو مكة، كما أن إبرام معاهدة مع المسيحيين أو أية هدنة مع العرب كانت بالنسبة إلى ذلك الجشع الذي لا يراعي عهداً ولا ذمّة إنما قد عقدت لكي تنتهك، أوحين امتدت حملات

النهب التي يقوم بها من ميناء العقبة الواقع تحت سيطرته عبر البحر الأحمر وحتى اليمن وعدن ووصلت وقاحته إلى حدّ مهاجمة الأماكن المقدسة الإسلامية في مكة والمدينة ونهبها، وحين هاجم مؤخراً قافلة قادمة من بابيلون "مكان القاهرة الآن" متجهة إلى دمشق وأسرها وفيها شقيقة صلاح الدين، فإن غضب صلاح الدين بلغ مداه. وجاء في "تاريخ المملكة اللاتينية" أن صلاح الدين أرسل على الفور رسله إلى الملك الجديد في القدس وطالب بإطلاق سراح القافلة وشقيقته حيث ذكر أنه لا يريد خرق الهدنة التي عقدها أثناء عهد الملك الشاب، وقد أصدر الملك (جويدو) أوامره إلى الأمير (رينو) بإعادة قافلة صلاح الدين، ولكن رينو أجاب بأنه لن يعيدها بأية حال وأنه سيد على بلاده مثلما أن الملك سيد في مملكته وأنه لم يعقد "أية هدنة مع صلاح الدين". ولقد كان نهب هذه القافلة سبباً في سقوط القدس" ولم تكن هذه هي الشرارة الأخيرة التي أدت إلى انفجار الموقف المشحون بسبب خرق الفرنجة لوعودهم.

وفي ٣ يوليو/ تموز ١١٨٧م وفي موقعة حطّين في مرتفعات الجولان، والحرارة على أشدها، في ذلك اليوم تمّ القضاء على كل القوات المسيحية، بما فيها طائفة الفرسان عن بكرة أبيها. ونجا الكونت "تريبولي" وحده من المرْجَل الملتهب الذي كان يتلّظى بنيران أتت على كلّ شيء. وقضى خلالها على الجيش بعد أن اعتراه الضعف وأنهكه العطش ولم يقع في الأسر إلا أعداد قليلة.

وبذلك ضاعت مملكة ومدينة القدس كما أن أقدس المقدسات الدينية وهو الصليب المنقذ الذي كانوا يحملونه خلال المعركة كرمز حربي، قد سقط في أيدي الأعداء، وتحدد بذلك مصير مملكة القدس بصورة قاطعة.

ولقد نادى صلاح الدين في جيشه بأنه يجب إدخال كافة الأسرى من (البارونات) الفرسان إلى خيمته، وكان الخوف والرعب مما يمكن أن يحدث لهم قد أخَذ منهم كلَّ مأخذ وزادَ في قلقهم أكثر مما سببه لهم العطش، ثم دخل صلاح الدين إلى الخيمة، وكانت رائحة الدم تطغى على المكان، وكاد يغمى على ملك القدس (جويدو دي لوزيمبنان)، ولكن صلاح الدين قام بما هو غير متوقع، إذ طلب من الملك أن يجلس إلى جانبه وأمر بإحضار قارورة عصير مثلج من جبل حرمون، وأعطاه (كأساً) مليئة من عصير الفاكهة المبرد. فهل كانت هذه مجرد لفتة. شهامة من أجل إنقاذ العدو المشرف على الهلاك عطشاً، كلا بل كانت أكثر من ذلك؛ لقد وهب المنتصر حسب التقاليد العربية مع الطعام المقدم إلى الخصم المقهور، وهبه حياته ذلك أنه عندما أعطاه ليشرب فإنه وضعه تحت حمايته وظلله بالأمان.

ولكن الغضب الشديد انتاب صلاح الدين، فما الذي حدث؟ إن ذلك الشخص الذي لاقى كل ذلك الترحاب قد أعطى الكأس إلى الواقف بجواره، الذي اختطف أخت صلاح الدين ونهب الأماكن المقدسة للنبي محمد ﷺ، إنه رينو دي شايتلون ذلك الرجل الذي لم يحفظ مطلقاً العهد الذي أعطاه، وكان يضيف إلى كل الأعمال الدنيئة عملاً جديداً في كل مرة، قد أقسم صلاح الدين على أن يفصل رأسه عن جسده بيديه، ذلك أن من لا يتسم بصفات الفروسية لا يكون جديراً بعفو الفارس ولا يجب أن تشمله الحماية التي تمنح للضيف، ولذلك أمر صلاح الدين بالامساك به وإخراجه من الخيمة، وطلب سيفاً وحين أحضر إليه وجه ضربة واحدة إلى المغامر الجميل فصل بها رأسه عن جسده وتركه يتدحرج

فوق رمال الصحراء، وأنهى ذلك المشهد: ثم أمر بأن يجر (الجسد) عبر كافة المدن والحصون وقد حدث.

لم يكن هناك شيء عاجل أمام الملك البائس جويدو لكي يفعله سوى أن يخرق الهدنة التي عقدها من جانبه ويخرج على رأس البقية البائسة المتبقية من جيش الصليبيين. وقد أثبت صلاح الدين ورفاقه مئات المرات أنه لم تكن هناك حاجة بالعربي الفارس لأن يتصرف حسبما تمليه تعاليم العهد القديم التي تقول العين بالعين والنفس بالنفس والسن بالسن واليد باليد والرجل بالرجل، والحريق بالحريق، والجرح بالجرح، والضربة بالضربة (٢ موسى، ٢١، ٢٣)، ذلك أن في مقدوره استناداً إلى القوة الذاتية الداخلية الشخصية أن يمارس العقاب بترفع كما يفعل الفارس الجرماني ولكن أياً كان قدر الكرم وعلو الهمة التي تنبع من الفارس العربي فإن كل ذلك كان يختفي تماماً ولا يظهر في اللحظات التي تؤدي فيها الضعة الإنسانية إلى إشعال نيران غضبه متحولة إلى فعل نافذ فليس على الخائن أن يتوقع أي قدر من الشهامة.

التسامح العربي والألماني

أثرت الفروسية العربية على الفروسية الألمانية تأثيراً قوياً، الأمر هنا كان بمثابة التقاء بين أفكار وثيقة الصلة ببعضها، كما أنه كانت لها تأثيرات على الألماني الذي يتمتع بتقاليد الفروسية أعمق من محاولات الدعاية الكنسية التي وضعت لتلك التأثيرات صورة عكسية مشوهة عن العدو، حيث صورت العرب المسلمين على أنهم شياطين مردة، وعبدة أصنام قساة، يضحون المسيحيين على مذبح نبيهم محمد ﷺ، وتلصق بذلك المخلوق الخبيث[1] كافة الآثام والأفعال الوضيعة.

ولا يمكن أن تكون دهشة المسيحيين أكبر مما حدث حين واجهوا لأول مرة شخصاً عربياً بلحمه ودمه، حيث أظهرت دهشتهم الشديدة تلك مدى المفاجأة بالنسبة إليهم، حيث قالوا: إنهم حقاً أناس مثلنا! كما أنهم فرسان أيضاً "نعم - لقد كانوا بالفعل فرساناً انضموا مرات عديدة بفروسيتهم الحقة تلك إلى اللاإنسانية! التي أوصى بها بشدة التعصب الكنسي العقائدي تجاه هؤلاء من أسماهم بالوثنيين.

ولا شك أيضاً أن الجانب العربي قد رسم صورة سيئة عن هؤلاء الغزاة المسيحيين، بل إنه حتى الفارس من طراز الأمير ابن منقذ الذي لم تنطق شفتاه باسم أحد الكفار والصليبيين إلا ويصاحب ذلك ترديده لنفس العبارة التي يكررها دائماً: "لعنة الله عليه"، وإن كان ذلك لم يؤثر على تصرفاته الفردية، بل والتي تتسم بالصداقة، ولقد عَقَدت الدهشة ألسنة الجانبين مثلما صرح الكونت الشاب فولكو الذي وصل لتوه من موطنه، وبطريقته المحببة لأسامه قائلاً: "لقد التقيت بالأمس بأصدقاء يتسمون بحياة دافقة، وقد قيل لي إنك فارس نبيل، ولم تكن

(١) كان يسمى هكذا في بذاءات الحملة الصليبية. حاشى رسول الله عليه السلام أن يوصف بهذا.

لدي أدنى فكرة عن أنك فارس حقاً فردّ عليه الأمير أسامة: "إنني فارس بمفهوم العنصر البشري والجنس الذي أنتمي إليه".

وبذلك لمس ذلك الفارس المسلم أحد منابع التسامح الإسلامي؛ إنها قدرة تتناقص بشكل واضح مع وهم أن المسيحية هي الديانة المختارة والتي تدعي بأنها وحدها القادرة على تحقيق الصفاء الروحي، وفرصة رؤيتها الخاصة وقناعاتها الخاصة على الديانة المغالية التي تعتبر ملزمة بشكل عام، إنها إذن قدرة الإنسان العربي التي تحدد - كما سنرى - أيضاً ميله نحو الطبيعة وأسلوبه العلمي، ذلك الذي يتمثل في أن يفكر في إطار إنساني شامل والاعتراف للفرد بوجوده الذاتي وطبيعته المتفرده ولكل شخص بحقوقه الذاتية، بالإضافة إلى الاستعداد للإقرار بحرية أصحاب العقائد الأخرى واختيار عقيدتهم بأنفسهم بغض النظر عن وجهة النظر الذاتية.

ألا يشبه هذا الموقف ذو الصورة المريبة ذلك الموقف الذي وقفته الملكة الجرمانية سيجريد فون شفيدن التي أجابت ملك النرويج المسيحي أولاف تراجغسون حين طلب يدها وطالبها بضرورة أن تعمد نفسها: "إنني لن أتخلى مطلقاً عن العقيدة التي أدين بها وتدين بها عشيرتي كلّها من قبل، ولكنني لا أريد أن أختلف معك حين تؤمن بالرب الذي تريده" ثم ألا تزال ترن في آذاننا كلمة ملك بروسيا: "إن على كل شخص يجد المغفرة أن يتوجه حسبما يحلو له وهي المستمدة من اقتناع ديني حقيقي، ولكنه اقتناع غير مسيحي لذلك الملك الفيلسوف الذي كثيراً ما يساء فهمه على أنه ملحد وهذه الكلمة ليست لها علاقة بمسألة الجمود الديني والفكر الليبرالي الحرّ.

ألا يبدو هذا هو نفس التسامح الذي يراعي وجود الآخرين الفعلي وقرارهم الخاص، وذلك حينما يقول محمد ﷺ في بداية القرن السابع: "لا إكراه في الدين" كما أن الجرماني تيودريش الكبير الذي كان يسيطر على الأرض الرومانية لملك القوط الشرقيين وسيداً على الإمبراطورية الجرمانية العظيمة التي تضم الرومان والشعوب الجرمانية قد صرح قبل قرون من محمد ﷺ: وإنني لا يمكن أن أصدر أمراً لأحد باعتناق ديانة ما لأنه لا يمكن إجبار أحد ضد رغبته على اعتناق مثل تلك الديانة؟[1]

وكانت المسيحية في العصور الوسطى تريد أن تفعل نفس الشيء تجاه العقيدة؛ ولذلك فإنها اضطرت إلى التبشير لأنه لا يجب أن تكون هناك فوارق بين الشعوب، وكما أن الكنيسة تريد أن يعّم المذهب الكاثوليكي الكرة الأرضية كلها وكما أن أبناء المؤمنين يحبون أن يكونوا أبناء الله، كذلك فإن الزعماء الروحيين لمملكة الفرنجة: أكلوين وهارابانوس ماوروس يفهمونها على نفس هذا النحو، أي على النقيض تماماً من رسول الإسلام؛ ذلك أن محمداً ﷺ يطالب بالاستقلال وحق تقرير المصير لكل الناس حيث تعلن السورة الخامسة من القرآن (آية ٤٨) ما يلي: ﴿فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾.

ومن هنا كان التكليف منذ محمد ﷺ حتى اليوم هو ضمان الاستقلال الديني والقانوني لكل طائفة غير مسلمة داخل الدولة الإسلامية.

(١) هذه المقارنة لا تجوز؛ لأن ما ذكره الرسول ﷺ قرآن كريم وهذا الكلام الأخير لإنسان كافر وحتى لو كان مؤمنا فلا تصح المقارنة بين كلام الله وكلام العباد.

ومن هنا كان ذلك الاستعداد لدى الفاتحين المسلمين الأوائل في أن يبقوا على الشعوب التي تغلبوا عليها، وأن يمدوا إليها أيديهم، وألا يمسّوا ديانتهم ودور العبادة ورجال الدين لديهم سواء كانوا مسيحيين أو يهوداً أو من الصابئة بسوء. ليس ذلك فحسب، ولكن أيضاً العمل على توفير الأمن لهم، ومنحهم حقوقهم والحماية التي يطلبونها، ولايسمحون أن يلحق بهم الأذى طالما أنهم يدفعون الضرائب كما تقضي بذلك شروط التسليم السائدة للجيوش الظافرة خلال الفتوح العالمية في القرن السابع. وقد كانت هذه الضرائب أقل كثيراً من التي كانوا يدفعونها حتى ذلك الحين. والرواية التالية تبرهن على افتقار العرب بطبعهم للحماس لجذب الآخرين إلى ديانتهم:

فقد كانت تبذل الجهود لأسباب تتعلق غالباً بميزانية الدولة التي يلتزم بالإسهام فيها غير المسلمين التزاماً أقل بكثير مما كان يحدث تحت السيطرة البيزنطية. كانت تبذل جهود كبيرة من أجل منع دخول غير المسلمين في الإسلام، كما أن من يعنيهم الأمر كانوا يرون أن التسامح الذي لم يعهدوه من قبل حتى الآن، هو عمل خيري وغير معتاد: "فقد كتب أحد كتبة أحد أساقفة جماعة النساطرة التي كانت قد تعرضت للاضطهاد من جانب الكنيسة البيزنطية إلى صديق له كلمات تفوح فيها رائحة الارتياح:

وحتى حين بلغت محاولات الإثارة الدينية قمة الغليان أثناء الحروب الصليبية كان السلاطين المسلمون يدعمون المستشفيات المسيحية بالهبات المالية التي وضعت خطأ في الصورة العكسية بشكل أن تلك الأفكار متطرفة للغاية بواسطة الدعاية المعادية طوال كل القرون الماضية حتى يومنا هذا كان هناك مثل لها غير معروف ولا يحبذ المرء الاعتراف به، وكان ذلك لدى أسلافنا الجرمان الذين ينسب إليهم الرواة المعادون

لهم نفس ما نسب إلى العرب من القساوة التي لا حدود لها ، والفظاعة البربرية، والدمار الشبيه بما يشبه الجراد من إفساد في الأرض وهلاك للإنسان وإفناء لكل حضارة .

ويقدم لنا بلوتارخ اليوناني الصورة المقابلة لذلك في المواضع التي يصف فيها زحف (السيمبريين) عبر وادي إيتشتال وإن كانت تلك المعلومات قد وردت إليه عبر مصدر ثان أو ثالث وذلك عندما كشف جذور الفروسية الجرمانية التي لا شك خلفت آثاراً عميقة على الرومان : أي احترام العدو المكافىء في القوة وإحساس المرء بالسعادة تجاه صنوه . ذلك أنه بعد أن هرب الجزء الأكبر من الجنود الرومان بسبب تصدع جسر إيتشتال الذي تسبب فيه السمبريون مستخدمين جذور الأشجار وقطع الصخور بعد أن هربوا في خوف واضح فإن كافة الجرمان هاجموا القلعة من الجانب الآخر لوادي الاتشتال ثمَّ عقدوا مع الحامية الرومانية التي دافعت عن نفسها ببسالة وواجهت الخطر في سبيل الوطن - نتيجة لتقديرهم لموقف الرومان - معاهدة ومنحوهم حق الانسحاب بحرية . فهل هناك تناقض أكثر حدة مع ذلك من شنق كافة سكان القرى بما فيهم النساء والأطفال باسم المسيح بواسطة الصليبيين الذين خرجوا من أجل تحرير القدس تلك المدينة المقدسة؟

إلا أن التقرير الذي وضعه القديس أوجستين ودهشته من سلوك الجرمان عند الاستيلاء على روما المسيحية في عام ٤١٠ بواسطة ملك القوط الغربيين ألارلش يلاقي قدراً أقل من الشك مما ذكره المؤرخ الروماني، وبالتأكيد فإنه يعلو على أي شبهة بالتحيز : "إن الشيء الجديد تماماً هو أن البرابرة قد أظهروا مثل تلك الرأفة بدلاً من الفظاعة المعتادة وذلك نتيجة لتغيير عجيب في سلوكهم ذلك أنهم طالبوا الرومان أن يتخلوا عن كنائس البازيليك الفسيحة ليتجمعوا فيها حيث يكونون

بمأمن من أي اضطهاد، وحيث لا يستطيع أحد أن يأخذهم أسرى من هناك كما أنه يمكن بالفعل وضع الكثير من أعدائهم المشفقين عليهم في تلك الكنائس.

ولم يكن ما يشغل بال رأس الكنيسة قط ذلك الحدث النادر الوقوع وهو أن يقوم المنتصرون بمنع تعرض أعدائهم للنهب والطرد في حين أن قادة الجيوش المسيحيين كانوا يسعون دوماً إلى القضاء على سكان المدن التي يستولون عليها على أنَّ أكثر الأمور بعداً عن التصديق هو أن البرابرة الوثنيين لم يمتنعوا فحسب عن تدمير الكنائس المسيحية وإنما حرصوا على مكانتها المقدسة ووظيفتها التي تقدم الحماية والمأوى. وفي الحقيقة فإن التسامح و"الفروسية" التي تدفع ذلك المضطهد القاسي للخارجين عن تعاليمه المسيحية الجامدة، (أوجستين) إلى إظهار الدهشة الواضحة. وذلك الرجل الذي ظل يدعو لفترة طويلة في واقع الأمر إلى الرأفة والرحمة لم يبذل في الواقع بصورة فعلية جهداً لمنح ذلك الاعتبار والاهتمام الفعلي بالعدو.

الألماني النبيل ، رمز للفروسية

ولهذا السب فإن الإصرار على الكراهية الدينية بالصورة التي اجتهد المتعصبون الكنسيون لكي يزرعوها في قلب المحارب الصليبي، ظل غريباً عن طبيعة الفارس الألماني. كذلك ظل التعصب العقائدي الذي أخذ الشعراء من الرهبان – مثل الراهب كوزاد في أغنيته رولاند التي أنشدت بالألمانية – يروجون له دون هوادة تجاه الكفار الملعونيين الذين لا يرجى من ورائهم شيء. وكذلك نجد التحمس العقائدي الفظ وتلك الأشعار المبتذلة التي يؤلفها رجال الدين ويغنيها الموسيقيون المجهولون متشدقين بشخصيات نمطية جامدة مثل الفارس النبيل " و " الوثني الشرير " . وكان من شأن تلك الأشعار أن تدفع برياح جديدة تهدف إلى إحياء الحماس الصليبي الذي أصابه الكلل وكاد يتوقف تماماً.

في حين أن الفروسية هي التي دافعت ضد محاولات تحقير الخصم وإدانته وذلك عن طريق الإدراك وإقرار الفارس فولفرام فون إيشنباخ بأن الكل مخلوقات الله. ويتضح لنا من قراءة الأشعار الألمانية أن الفروسية الألمانية تصف نفسها بصفة الفروسية الحقة، فهي قد خلقت شخصية الوثني النبيل. وكان ذلك بمثابة عمل يتسم بالهرطقة والثورية ويتحرر من ازدواجية التفكير الكنسي أي التفكير الذي يتحرر من الفكر المتصلب ويتخلص من الموروث اللغوي، ولكن كيف يتم ذلك التحرر؟ عن طريق المطالبة بالتكافؤ في القتال الحقيقي الذي لا يعاقب المخطئ و يقطع رأس المجرم ويمكنه أن يجتث جذور الكفار، ولكنه الفكر الذي يطالب بعكس ذلك، أي الخصم الجدير بالاحترام بصفته رفيق نضال.

واستناداً إلى تلك الملامح المحببة نشأت الصورة الجديدة "عن الوثني النبيل". وتكرر ذلك كثيراً؛ مثلاً على أيدي الشعراء المجهولين الذين كتبوا مثل إرنست "أورينـدل" و "قولف ديتريش" و "تشيد جورون" كما فعل ذلك أيضاً هارتمان فون أوي، ورودولف فون إمس وأرلريش فون ريم تورلين، وكما فعل بصورة تتسم بقدر أكبر من الحيوية والوضوح فولفرام فون إيشنباخ. وعلى الفور يصبح في وسعنا أن نتخيل قيام علاقة الحب، بل الزواج بين أحد الفرسان الألمان وامرأة عربية خاصة وأن مثل تلك الروابط لم تكن في الحقيقة نادرة الحدوث فقد تزوج فارس من "جيبايل" ابنة سلطان حلب، كما تزوج سلطان إيكونيوم الكونتسية النمساوية إيدار. وهكذا تحولت ممارسات الوثنية الفطرية كما يحدث للأمير في الأسطورة إلى فرسان بلاط في أبهى منظر ويتمتعون بأخلاقيات طيبة، وشخصيات نبيلة وأسلوب فرساني في القتال - وهي صور مثالية للفروسية وأخلاقها العالية لا تقل في شيء عن صورة الفارس الألماني سوى أنه يؤمن بإله آخر ولكنه حتى ذلك نادراً ما كان يُعَد نقيصة و في معظم الأحيان لم يكن أحد يشير إلى ذلك. فيا له من إنجاز.

ولكن المرء لم يتوقف عند هذا الحد؛ فشعر الفرسان الألماني لم يكتف بتصوير العربي على أنه يتمتع بقدرة مثالية مساوية وأنه خصم يتمتع بنفس الأخلاقيات النبيلة مما يدفع الآخرين إلى احترامه وإلى الإعجاب به والسعي إلى كسب صداقته، بل إنه أصبح عنواناً للفروسية. ويتكرر هنا أيضاً ما نعرفه كحقيقة تاريخية من أن القدوة التي تبدو في الفروسية العربية تدفع الفارس الإنساني إلى تفجير طاقاته.

فلقد أوضح إيشنباخ أن فروسية الفارس العربي كانت سبباً في بعث تقاليد الفروسية لدى بطله " ذلك أن فولفرام لم يجعل بطله بارتسيفال يقوم بواجبه اعتباطاً خلال المعركة الأخيرة الحاسمة في حياته فيما بعد. ذلك الطريق الطويل الذي خاضه من خلال الإحساس العميق بالألم والنصر والفشل واليأس وهو في مواجهة البطل (فايرفيتز) (Feirefiz). وما حدث هو أنه خلال المعركة مع فايرفيتز " الوثني المدجج بالسلاح الذي يُعَد من أشد الفرسان فتكاً ، فإن بارتستال عانى محنة لم يشهدها من قبل وهو أقوى فرسان الغرب الذين أثبتوا كفاءة خلال العديد من المعارك. ولم يكن يعرف خصمه وهو وراء دروعه المحكمة، ولكنه أحس أنه يتمتع بفنون قتالية متفوقة لا ترحم. وقد دفعه ذلك إلى بذل قصارى جهده، الأمر الذي جعل كفة الميزان تتأرجح بينهما، وهنا يتحطم سيف بارتسيفال على خوذة الفارس المجهول، كما أن عنف الضربة جعل الغريب يسقط على ركبته ولكن لفترة قصيرة تمكن بعدها على الفور من الوقوف على قدميه من جديد ولكن بارتسيفال أصبح أعزل من السلاح وتحت رحمة خصمه القوي معرضاً للموت.

فماذا فعل الفارس المجهول؟ لقد كان النصر في متناول يديه، كما أن كل قواه كانت مشدودة نحو الهدف، ذلك أن هدف أي معركة هو ضرورة التغلب على الخصم. وبعد لحظة بدت طويلة أخذت نظرته تنم عن الرحمة. ولكن المصير كان لايزال معلقاً، وكان ناقوس القرار يتأرجح بين النصر والشهرة ذائعة الصيف وموقف الترقب الصامت للخصم الذي أصبح بين يديه، وهنا أدرك ذلك الفارس الوثني تلك الفرصة النادرة التي تتيحها له هذه اللحظة.

وهكذا تخلى عن الشهرة التي كان سينالها من القتال وعن الاستمتاع برؤية منظر خصمه جاثياً عند أقدامه. "وهكذا ظهرت الصفات التي تنم عن رجولته فقد أصبح يتسامى على كافة الأمور الصغيرة حيث قال: لن ينال هذا السيف من أي منا". وألقى بسيفه، فهل كان ذلك بدافع الرحمة؟ كلا، ولكن محاربة أعزل من السلاح لا تعتبر بالنسبة إليه قتالاً، لأنه يجب أن تتاح للطرفين نفس الظروف، لذلك قال موجهاً حديثه إلى بارتسيفال: "إنني لن أحظى بنصر مؤزر إذا أنا قتلت خصماً لا يستطيع الدفاع عن نفسه وإذا كان لا بد من معركة ثنائية فيجب أن تكون اللعبة متكافئة بالنسبة إلى الطرفين. كذلك فإن الغريب أوضح لبارتسيفال أنه أخوه غير الشقيق (فرايفتز) بالبياض فهكذا تصور الشاعر - الذي لم ير البلدان العربية مطلقاً - لون المرأة العربية وابنها من زواجها من والد بارتسيفال.

إن هذه الأخوة بين فرسان هذين العالمين اللذين يفصلهما عن بعضهما العنصر أو الدين والتي تنشأ بصورة لها قوة المثل والقدوة نتيجة للأعمال الفرسانية التي يأتي بها ذلك الوثني وكذلك الخبرة المكتسبة مؤخراً من جانب من كان معرضاً للموت تواً والمتمثلة في التخلي عن استخدام السيف بسبب الأخوة ونتيجة الفروسية التي لا مثيل لها لدى المنتصر، كل ذلك كان كافياً لإحداث التغيير. وهذا فقط هو الذي يجعل بارتسيفال أكثر حكمة ونضجاً وليس تعاليم جورينمانس بشأن عالم البلاط الذي يفرض التقاليد الشكلية للفروسية، ولا تعاليم التقي الراهب ترمريتسنت حول خطاياه ولا التحذيرات الجافة وإدراك حقيقة الأمور. وهكذا فإن قيام فايرفيتز بالإبقاء على حياته بينما هو في أشد حالات الخطر سببٌ في أن يدرك بارتسيفال الرابطة المصيرية والالتزام المتبادل نتيجة للمثل الحي لمسؤولية الفارس غير الأنانية الواجبة تجاه الآخرين وتجاه

المجتمع والسلام والنظام في العالم هي التي أنضجته وجعلته جديراً بقيادة الإمبراطورية. ولذلك فإن لحظة لقاء بارتسيفال مع فايرفيتز تعتبر واحدة من أهم لحظات الإنسانية الفرسانية في تصوير الشعر الألماني للفروسية ولم تكن تلك هي القصيدة الوحيدة بالنسبة إلى فولفرام.

ذلك أنه أيضاً في ملحمة ڤيلهلم الشعرية الكبيرة التي يجول بها فولفرام في أفق الأحداث التاريخية الواسعة وفي أراضي الإمبراطورية، فإنه جعل أحد العرب يقوم بالدور الحاسم الذي يحدد مصير المعركة. ويجب علينا أن نوضح تلك المسألة الخطيرة برمتها؛ ذلك أن أحد العرب في بلاط القيصر في آخن وهو عربي أخذ يحث فرسان الإمبراطورية الذين يتهربون من القتال ولا يرغبون فيه على الهجوم. عربي كانت شجاعته البطولية ومهارته القتالية سبباً في أن يحرز جيش الإمبراطورية النصر. ولكن لم تكن هناك تبريرات نفسية كاملة للسبب الذي جعله يقاتل حتى أباه وعشيرته العربية، وظل يمثل بالنسبة إلى الشاعر بصورة غير أساسية شخصية محببة جداً تشع الكثير من البهجة والحب والفكاهة، وهي صفات زود بها ذلك العربي النبيل الذي يتسم بعدم المهارة.

وتبدأ الحكاية أشبه بالأساطير: ذلك أن الشاب العربي، وهو ابن ملك بغداد العظيم (تيرامر)، خطفه التجار من وطنه (ليجعلوا منه عبداً) وباعوه إلى قصر لودڤيج التقي، حيث اضطر على الرغم من حسنه وعلو أصله أن يعمل دون أن يعرفه أحد مساعداً للطاهي تحت اسم (رينيفارت) لأنه لم يرضخ لكافة الإغراءات من أجل تعميده. ولما كان الكونت ڤيلهلم على وشك أن يقود جيش الإمبراطورية ضد هجمات أقوى قوة في كافة الممالك العربية من مارسيليا حتى القوقاز فإنه اكتشف وجود ذلك الشاب العربي في تلك المكانة الحقيرة فاتخذه تابعاً له، وكان

السبب وراء تلك الحملة العربية والتهديد الذي تعرضت له الإمبراطورية كلها يعود إلى ابنة الملك تيرامر وزوجة الملك تيبالت التي كانت أجمل نساء العرب ولذلك سميت بالحسناء أو (آرابليلا)، ذلك أنها قد تخلت عن قبيلتها وزوجها ودينها لفرط حبّها لكونت ڤيلهلم من البروڤانس ... تبعت ڤيلهلم بصفتها زوجته المسيحية التي يثق بها إلى قلعة (أورانج) تحت اسم جيبورج. وقد وضع الشاعر الفارس على لسانها وهي العربية عند وداع زوجها الذي أوكل إليه القيصر قيادة جيش الإمبراطورية ضد الجيوش العربية وضع على لسانها الرجاء التالي:

عندما يندحر الوثنيون

اعملوا على بقاء الأمور سليمة

ولتسمعوا نصيحة سيدة كريمة

عليكم أن تبقوا على مخلوقات الله

ذلك أن الوثني هو أول إنسان خلقه الله

وكنا جميعاً وثنيون قبل أن نولد من جديد.

ولكن أخاها هو الذي حقق رجاءها، وهو ذلك الرجل رينيڤارت صاحب الضياع الذي أظهر أنه أقوى المحاربين خلال المعارك وحين يستسلم له الخصم، وحتى لو كان هذا الخصم مجرد حارس بسيط، فإنه يبقي على حياته:

لقد قام بذلك بدافع من فروسيته التي جبل عليها

لأن أعداءه استسلموا بلا سلاح

فلم يكن لديهم سيف أو رمح

إلا أن شهامة الفرسان لا تعني إعمال الروية تجاه الضعفاء ومن يرفضون القتال. ذلك أن رينيفارت لا يحجم عن وخز أجسام الفرسان الفرنسيين برمحه الطويل حين بدؤوا يغيرون فكرهم عند (بداية) الجولة الكبيرة واتخذوا طريق الهرب.

أراد البعض رؤية نسائهم من جديد
والبعض الآخر سعى بعد المشاق التي تجاوزوها
وبعد كل العناء، الذي تجشموه أن ينعموا بالراحة
في حين أن قطاعاً ثالثاً أراد الخلود إلى
الراحة بعد العناء
ويرى أن لا توجد خيمة في حقل أو مرعى
يمكن أن تكون مريحة بحيث لا يمكن
استبدالها بوسادة ناعمة في مخدع دافئ
وليستمر الأغبياء
في محاربة "شراذم العرب"
في حين أننا نريد الهروب من ذلك العناء إلى حيث نجد راحتنا.

لقد قام رينيفارت بتربية هؤلاء الصبية ذوي الشعور الملساء" الذين " ليسوا رجالاً إلى حدّ أنهم ينسون سريعاً أنهم يفضلون تحقيق شهرتهم في حلبة السباق والتمتع بحياتهم بكافة الوسائل أما الآن فإنهم وبحماس بالغ اختاروا العربي الشاب ليكون قائدهم وتبعوه إلى المعركة وهم يطلقون الصيحة القتالية "رينيفارت" ونادى الكونت ڤيلهلم على الصبي العربي حين كان يتقدم على رأس الجيش الفرنسي الهارب: "من حسن حظيّ أنك معي".

ولذلك كان شعوره بالألم شديداً، حين لم يتمكن في المساء من العثور على صديقه رينيڤارت بعد نصر انتزع بصعوبة وبخسائر جسيمة. وكذلك فإنه منح ذلك العربي أفضل تكريم - "لأنني انتزعت النصر والفضل لله" :

أيها البطل الصنديد والشاب الرائع

إذا لم أستطع أن أخدم في ظل مهارتك الرجولية

وطبيعتك الودودة التي تتسم بالبساطة

ومكانتك الذائعة الصيت

يكون في ذلك هلاكي

ترى هل سرقك الموت مني؟

ألن تتقبّل خدماتي بعد الآن

ولا تستطيع الإنصات إلى ما أخبرك به؟

لقد دافعت عن هذا البلد من أجلي

وحافظت على حياتي وعلى "جبيورج" زوجتي الجميلة

ولولا شجاعتك التي لا مثيل لها

لكان أبي العجوز قد تعرض للهلاك

ولكانت عشيرتي وإخوتي قد ضاعوا بدونك

لقد كنت الدفة التي توجه سفينتي

والرياح الميمونة الدافعة

التي جعلت أبناء هايزيش يضعون أقدامهم على الأرض الرومانية بثقة.

obeikandl.com

ولم يسبق أن تبوأ أحد من معاصرينا قبل ذلك

مثل تلك المكانة الرفيعة

وهنا تبرز من جديد تلك اللحظة الخلاقة العظيمة التي أتيحت للطرف الظافر الذي أصبح في مقدوره من خلالها أن يغير ما بنفسه على الرغم من تشبعه بضراوة القتال ومرارته، وأن يتمسك بتقاليد الفروسية بدلاً من التفكير في الانتقام.

تلك اللحظة التي لا يمكن استرجاعها مرة أخرى والتي لا يحاول منها أن يزيد من إذلال وقهر العدو الذي كافح بشرف وخسر بشرف ولكن يحاول إقالته من عثرته وإصلاح أمره، فهل سيدرك ڤيلهلم تلك الفرصة الفريدة ويفهم ذلك النداء الصامت الذي يأتي نتيجة النصر الذي حققه ذلك الرجل الصلب القوي محققاً به شهامة الفارس؟

لقد أمر القائد الظافر ڤيلهلم بإحضار أحد الأمراء العرب الأسرى إلى معسكره حيث رأى أنه جدير بشكل خاص بالقيام بمهمة ما، وقال له: "إنكم تمارسون حياة كريمة وشريفة ويمكنني أن أمتدحكم من نواحٍ عديدة، أمتدح شجاعتكم وإخلاصكم، وكرمكم الذي لم يتأثر رغم تقديم كل التضحيات وكذلك صلابتكم التي لا تهتز مطلقاً." وطلب منه أن يبحث عن الأمراء العرب الذين سقطوا في ڤالشتات حتى يستطيع توفير الرعاية التامة لهم: "بحيث لا يصبحون نهباً للذئاب والغربان"، وحتى يتمكن من استقبالهم بما يليق بهم ودفنهم وفق مراسم ملوكية كما لو كانوا قد ماتوا في ممالكهم وأوطانهم. وهنا ألقى الرجل الذي حظي بكل ذلك التكريم بنفسه عند أقدام ڤيلهلم، ولكن الأخير أوقفه ثانية على الفور فشكره الكونت وقال، إن تلك الفعلة قد توجت عمله، وإن ذلك

سوف يظل دوماً عنواناً للطيبة، كما أنه لن ينسى كرمه مطلقاً.

وقص عليه ڤيلهلم ما يلي: " إنه قد وجد الكثير من ملوك العرب القتلى في خيمة أحد الكهنة الوثنيين "حيث تم دفنهم هناك، -" ولذلك فقد وضعت الخيمة تحت لوائي الذي ضربته أمام الخيمة وأصدرت أوامري بألا يؤخذ أي شيء من خيمة الكاهن. ثم اتجه بكلامه إلى أسراه الكرام: "أما أنتم فيجب ألا تبقوا هنا كمهزومين، فاطلبوا بأنفسكم ما تريدون، وكل ما أملكه تحت تصرفكم. ولكي يشرّف خصمه فإنه كلّفه بمهمة إعادة الأبطال العرب القتلى إلى موطنهم في ظل حرس شرف من فرسان الفرنجة. وبذلك فإنه يكون قد تصرف متجاوزاً تناقضات العقيدة والعداء والآلام التي اجترحت من قبل وتصرف على أساس من المساواة واحترام من هو جدير بالتكريم وشيّد الجسر المؤدي إلى السلام الحقيقي.

وأرسل يقول للملك العربي الكبير المهزوم أنه لا يرسل إليه قتلاه "بسبب الخوف"، وأن انتصار الإمبراطورية وفرسانه لايعني الذبح أو الاستعباد أو الإذلال أو توجيه اللوم بصورة جماعية، ولايعني كذلك العقاب أو التشدق بالنصر العظيم على العدو المهزوم الذي جرت العادة على استغلال هزيمته، ولكنه يعني الاستعداد لمنح التشريف للخصم الجدير بذلك وسواء كان يصلي لله أو للرب، لأنه لا فرق هناك بين الاثنين:

لأن الجميع مخلوقات الله

كل الناس الذين يتحدثون اللغات الاثنتين والسبعين التي خلقها الله.

وكون الإمبراطورية حقاً وانطلاقاً من روح الفروسية أن تظهر نفس الإحساس بالمسؤولية تجاه المسلمين بسبب تقديرها لهؤلاء الناس المساوين لهم وإن كانوا ذوي

عقيدة مختلفة – بالصورة التي يجسدها شعر ڤولفرام فون إيشنباخ الفارس عن الصداقة بين الشاب العربي الذي ظل مخلصاً لعقيدته وبين ڤيلهلم كانت هناك شهادة باقية على مرّ العصور على ذلك في ظل إمبراطورها العظيم .

ولقد أوفى فريدريك الثاني بالوعد الذي قطعة على نفسه للسلطان عندما وصل إلى الشرق إذ قال له حينئذ : "عليكم أن تستريحوا من مواجهة المسيحيين، ولستم مضطرين إلى إراقة دماء أتباعكم في مواجهتنا" . بل إنه عرض فوق ذلك أن يعمل من أجل جمع شمل القلوب التي فرقها العنف وإراقة الدماء، في إطار صداقة تقوم على قدم المساواة .

وهي فكرة ڤولفرام نفسها حوالي عام ١٢١٠م التي صاغها شعراً في "ڤيلهلم" ، واتفاق السلام الذي عقد يوم ١٨ فبراير ١٢٢٩م الذي دعا إليه في نفس الوقت القيصر الألماني والسلطان العربي أي إن الخيال والواقع تلاقيا معاً .

إن هذه الروح التي تتمتع بها الفروسية الألمانية والإمبراطورية على حدّ سواء قد ثبتت أقدامها كشيء بالغ القدم وبالغ الجدة في الوقت نفسه بعد أن تخلصت من الروح الانقسامية التي عبرت عنها عبارة كليرفو : "إما تنصير الكفار أو قتلهم" . وقد نشأت عن تلك الروح رابطة فريدة من نوعها مع أصحاب الديانات الأخرى . تآلفت معها مشاعر الدهشة من جانب أبناء الغرب الذين أخذوا يفركون أعينهم بعد أن زالت عنها غشاوة الأساطير السوداء التي تتحدث عن الأعمال الفظّة من جانب الشياطين الوثنيين الذين اتضح أنهم أصحاب حضارة وأسلوب حياة تتفوق من كافة الجوانب على الغرب و تتمتع برونق وبريق لم يسبق أن رآهما أحد، ومن ثم أصبح لزاماً على هذا العالم أن يحتذي حذوهم ويعمل على الاستفادة من سحر أسلوب حياتهم الفاتن .